حوار الحضارات بين الإمكانية ومواجهة العوائق

الأستاذ عبد الرحمان خرشي – جامعة الأغواط – الجزائر

الملخص :

حوار الحضارات... معادلة صعبة يلعب فيها التواصل دورا هاما في تعميم القيم الإنسانية المشتركة، وانخراطا واعيا في إطار من الانسجام مع الآخر وتطوير خطاب يسهل فكرة التلاقح بين الثقافات المختلفة، ذلك أن الاختلافات الحضارية برأينا ليست اختلافات مطلقة مع أنها جوهرية، رغم تعدد الأديان وتنوع الثقافات والتجارب التاريخية، وهو ما يطرح الحوار كضرورة حضارية راشدة في سبيل المحافظة على البيت الكوني المشترك في إطار تصور شمولي لولادة حضارية جديدة لها مقومات كونية حقيقية في ظل التعددية الحضارية، فالحوار الناضج هو« الذي يتجسد من خلال التفاعل الحي فيما بين الحضارات، وذلك لأن الحوار ظاهرة صحية، إضافة إلى كونه سمة بارزة من سمات الوجود الإنساني »[1].

يبدو أن الأمر ليس بهذا اليسر، لأن الكثير من الحواجز النفسية والميول الإيديولوجية والحزازات التاريخية لا تزال قائمة، إنه من العبثي أن يجري حوار في الواجهة، بينما الصدام واقع الخلف، إذ عادة ما توضع المصالح الضيقة في منتهى الأولوية وهو ما يؤثر على جوهر التفاهم بين الحضارات، فالاكتفاء بتجميل الصورة في مرآة الآخرين، ليس بالحل الذي يُجدي بينما يتزايد الحقد والكراهية، وأحيانا

الحروب. ويعترف رايموند كاربونتيي بقوله: «إننا لسنا مستعدين للحوار مع الآخر، ولا حتى للعيش مع أنفسنا، فقد تعود فكرنا على جدل المتناقضات، على النزاع والمشاحنات التي تجعلنا لا نستطيع تصور العالم إلا على أساس الصراع». إن الحوار يعني أن كل طرف من الأطراف المعنية يحاول طرح خصوصيته وإقناع الآخرين بصحة تلك الخصوصية... وليس بمجرد تبادل مجاملات وعناق وقبلات، وأحاديث طيبة في حفلات المناسبات والمجالس التي يغلب عليها طابع العتاب المهذب والعناق المفتعل، فإنه بطبيعة الأمر لا يغير شيئا»[1].

إن التغيير المطلوب هو ذلك الذي يستوفي الخيارات القائمة والممكنة في تصور طوباوي للمستقبل، ولو داخل حيز من التمايز العقائدي والاختلاف الفكري، فالحوار الحقيقي يقتضي الاعتراف المتبادل أولا ثم التعارف الجيد على أساس أنه ليس «غاية ينبغي تحقيقها لاستكمال عملية التجميل للخطاب المعاصر، بل هو خلق مناخ ملائم للتفاهم والتعاون الذي سيساعد الجميع على توليد توجهات إيجابية أكثر، ويضعف الروح الكامنة والميول القائمة لتغذية النزاع والعداوة أو لنقُل الأداة المشتركة التي تمكننا من تحقيق فهم أعمق للذات وللآخر»[2].

إن مسألة «الآخر» وتحديد هويته وخصوصياته أمر جوهري في رسم معالم هذا الحوار، فالجدير بكل طرف هو محاولة معرفة «الآخر» بشكل آخر، وتأسيس علاقة تسمح بمعرفة حقيقية متبادلة ليتم التفاعل الإيجابي بين مختلف الثقافات والاتجاهات الفكرية العالمية، ثم إن القوقعة على الذات والعزلة داخل أسوارها، يفضي إلى الانغلاق الحضاري والانطواء والكبت،عوامل تؤول إلى الموت الحضاري، لذلك

يسهم الحوار الجاد بين الحضارات «بدرجة كبيرة في إزالة الحواجز المتراكمة من سوء الفهم المتبادل، ومن الأفكار المسبقة القائمة على أسس غير صحيحة والتي تختزنها الذاكرة الشعبية لثقافة شعب من الشعوب عن ثقافة شعب آخر» [1]

وعند الحديث عن ضرورة الحوار الحضاري،فإننا نستحضر في أذهاننا سيناريو العلاقة بين الإسلام والغرب بوصفهما قطبين أساسيين في كل حوار أو تفاهم، مع ملاحظة أن العالم الإسلامي يعيش منذ قرون طويلة زمن الانحدار والتدهور، بينما لا يزال الغرب يعيش لحظة الذروة منذ أجيال، ولعل الإيمان بمبدأ «البقاء للأقوى» والشعور بعقدة التفوق لدى الغرب، خاصة لدى الأمريكيين، هي مكمن ذلك الصراع الحضاري الذي يشهد حاليا أطوارا متقدمة، ويبدو أن «الخيارات القادمة ستضع العالم أمام مصيرين،حرب عالمية ثالثة تدمر كل شيء، أو عالم تعددي متفاهم، مطلوب من مفكري الغرب قبل غيرهم» [2]. والحق أنه تم الإعلان عن محاولات كثيرة في هذا الاتجاه، ولكن لحد كتابة هذه السطور ظلت المبادرات حاضرة، لكن في غياب الحلول الفعالة والعادلة.

ولأن الدين هو المكون الرئيسي والخلفية الأساسية للحضارات، بحيث يصف الغرب حضارته بالمسيحية ونصف حضارتنا بالإسلامية، فإن التعايش بين شعوب العالم يتطلب عقد التفاهم بين أديانه، فالتعايش السلمي «يجب أن يكون ثمرة لحوار الأديان وليس العكس إذ لا وجود لدعوات التطرف في الأديان السماوية، ما هو

موجود هو سوء فهم للنصوص» [1]. أو لعله تقديم المصلحة الخاصة وتغليب الحقد التاريخي الذي استطاع الاستشراق تثبيته في المخيال الغربي، فالدعوات إلى التقارب والتعايش بين الإسلام والغرب «ينبغي أن تُمحِص وتُغربِل هذه الدراسات الاستشراقية العدوانية، وتكشف نوايا أصحابها، فمن دون ذلك لا يمكن الحديث عن أي تقارب أو تعاون يقف على أرضية ملغمة قد تنفجر بين الحين والآخر» [2]

ويبدو أن نظريات نهاية التاريخ، وصدام الحضارات وغيرها مما يروج له حاليا تصدر في عمقها عن نظرة «الخطر الإسلامي» في مقدمة أعداء الغرب، وتتبنى بذلك أحكاما تستبعد المنطق ولا تأبه كثيرا للحقائق التاريخية. لقد قدمت الحضارة الإسلامية في الأندلس نموذجا يحتذى به في التعايش والتفاهم بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وكانت لها مساهمة نوعية في تاريخ الحضارة والمدنية، أما الرشدية اللاتينية فمثلت أرقى صور التلاحم الحضاري بين المسلمين والمسيحيين، لذلك يعتقد البروفيسور غرانغيوم جيلبير أن «الحضارات الكبرى استعارت واتّكأت على الآخر، هذا الآخر الذي لا يبتعد كثيرا عنا، لذلك يجب أن نعرفه من خلال أنفسنا، لكي يتسنى لنا قبول حوار ليس فقط، بين الأديان، بل بين الثقافات والحضارات» [3]، وهو ما لا يلقى له بالا في الغالب الأعم، فالفكر السياسي الغربي يرتكز على ربط الغايات بالوسائل لأنه تفكير ميكانيكي ميكيافيلي، ومن بين معوقات التفاهم الحضاري ازدواجية المعايير لدى الغرب في معالجة القضايا العادلة في العالم وانحيازه لأطراف دون أخرى، مرجحا في ذلك الولاءات العقائدية والسياسية والفكرية.

لذلك يرى الأستاذ أبو عمران الشيخ أن النخب هي المؤهلة «للاضطلاع بمهمة التوعية بضرورة الحوار، رغم الأحكام المسبقة والجهل والأنانية المنتشرة على نطاق واسع، لذلك فمن الواجب على أصحاب النوايا الطيبة أن يبذلوا مجهودات أكثر في سبيل خفض حدة التوترات»[1].

إن آفاق التعاون وإمكانات الحوار تضل قائمة، رغم المعوقات السياسية والفكرية والمشاكل على الأرض، فليست كل العوامل مثبطة، ومن مظاهر التسامح المسيحي الإسلامي، البيان الذي أصدره الفاتيكان في ستينيات القرن الماضي،والذي أبدى فيه إعجابه بكثير من جوانب الثقافة والحضارة الإسلامية، ومما جاء فيه: «.. ولكن خطة الخلاص تشتمل أيضا الذين يؤمنون بالخالق وفي مقدمتهم المسلمون،إنهم يعلنون التمسك بملة إبراهيم ويشتركون معنا في عبادة الإله الرحيم القوي،خالق السماوات والأرض الذي يحكم بين الناس في اليوم الآخر».

وبناء على كثير من المعطيات نجد أنفسنا أمام الحقيقة التالية: ليس الغرب كله شرّا، وعلينا أن نعترف بوجود ثلاثة مستويات على الأقل لمصطلح «الغرب»، فهو أولا الشعوب، وثانيا العلم والتكنولوجيا، وأخيرا مشروع المؤامرة الذي يشكل جزءا من حالة فكرية تتجه إلى السيطرة على الطبيعة والناس، وليس الغرب كله بكونه تحديدا جغرافيا، هذا من جهة. ومن جهة أخرى ينبغي علينا البدء بحوار الذات أولا وتجاوز منطق الفرقة الناجية، كما يقول الأستاذ محمد أركون، وذلك لرأب الصدع بين مختلف ممثلي التيارات الإسلامية في الأقطار المختلفة بمحاولة جمع أشتات تلك المذاهب والاتجاهات التي لا تحفظ لبعضها البعض في العادة أي احترام ولا تعترف الواحدة منها بتراث الأخرى ولا بحسناتها، ثم إنه لمن الضرورة بمكان «إقرار سوسيولوجيا الأديان المقارنة على طلاب الجامعات في شتى التخصصات حتى يمكن فهم

أفضل لحقيقة الأديان، ولكيفية الحوار والتسامح بين الأديان وقبول الآخر والتواصل الحضاري وذلك عن طريق التمكن من المناهج العلمية التي تساعد في هذه المهمة»[1].

إن تحقيق الوئام والتعايش صعب ولكنه ليس مستحيلا، فقد أجريت دراسات وعُقدت ندوات ونظّمت مؤتمرات عالمية لتفعيل حوار بين الحضارات. لقد أجرى الباحث»رولاند درايز» بحثا ضمّنه عرضا تحليليا شاملا عن حوار الحضارات من 1949 إلى 1989 وفي أوت 1995 عقدت تبليسي عاصمة جورجيا ندوة تحت عنوان»من أجل التضامن وضد التعصب وفي سبيل حوار الحضارات»، كما عقدت في العام نفسه ندوة أخرى نظمها مركزا للدراسات الجهوية بجامعة برينستون، وقد ضمت 50 شخصية يمثلون جميع الحضارات من أمريكا الشمالية والجنوبية وأوربا وإفريقيا وآسيا و أستراليا[2].

وقد توالت الدعوات لمثل هذه اللقاءات التي من شأنها تدعيم الحوار وتأصيله، فقد دعا الرئيس الإيراني الأسبق محمد خاتمي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى حوار حقيقي بين مختلف حضارات العالم، يحترم خصوصيات الثقافات والحضارات المختلفة «في إطار أفق حضاري مستنير يحرص على التفاعل مع الحضارات الأخرى سعيا للوصول إلى قيم عالمية متوازنة تحكم سلوك البشر وتوجه مسارات المجتمعات الإنسانية في الألفية الثالثة»[3].

ويعتبر روجي غارودي من المنظرين البارزين لثقافة حوار الحضارات وله كتاب بهذا العنوان، يعتبر وثيقة هامة في ترسيخ مبادئ أساسية لحوار يجمع في جوهره

أمشاج الإنسانية فكرا وحضارة. لقد أعاد غارودي رسم صورة التاريخ واعتبر أن الغرب فيه مجرد حادث L'Occident est un accident، حالة عابرة، فبعد مسيرة ثلاثين ألف قرن وعلى امتداد القرون الأربعة الماضية، هيمن هذا الغرب على العالم، مما أفرز نتائج وخيمة على الإنسانية من خوف وقتل ودمار، ويمعن غارودي في إيراد الأمثلة لإجلاء الماضي الاستعماري والتاريخ الدموي للمنظومة الرأسمالية التي هي وليدة الثورة الصناعية، مما دفع إلى حركة استعمارية تمت فيها السيطرة العسكرية والسياسية على إفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا، واستغل فيه ما يسمى اليوم بالعالم الثالث الذي أسهم الغرب في تخلفه.

إن تبني فكرة التسامح من جميع الأطراف وتجاوز الضغائن والخلفيات خيار جوهري لتحقيق معادلة الحوار الصعبة بين أشتات المجتمع الكوني التي يربطها عامل مشترك هو وحدة المصير، وقد أصدرت اللجنة العالمية للبيئة والتنمية كتابا بعنوان"مستقبلنا المشترك" جاء فيه «الأرض واحدة لكن العالم ليس كذلك، ونحن جميعا نعتمد على محيط حيوي للإبقاء على حياتنا ومع ذلك فإن كل مجتمع وكل بلد يكافح من أجل البقاء والرفاه، من دون اعتبار لأثر ذلك على الآخرين والبعض يستهلك موارد الكرة الأرضية بمعدل لن يترك سوى القليل للأجيال المقبلة، والآخرون أكثر كثيرا من ذلك عددا، يستهلكون القليل جدا، ويعيشون على حافة الجوع والقذارة والمرض والموت المبكر»[1].

وفي الأخير نقول أن تحكيم صوت العقل والمصلحة الإنسانية في صورتها الكلية، أمر لا غنى عنه في عالمنا المعاصر، إذ أن له ما يبرره في الحياة الواقعية. لقد انطبعت في ذهننا صورة طوباوية تعكس تطلعنا ككل العقلاء في العالم، إلى عالم

أفضل، تسوده قيم الحق والخير والجمال ويتم فيه تعويض الصورة السوداوية القائمة لأوضاع البشرية الشاذة بتصور سمفوني لمستقبل أفضل.

إن مفاهيم مغلوطة كثيرة تسود لغة الخطاب العالمي، وسوء فهم عميق حاصل بين أطياف المجتمع الدولي، والتعويل على التكامل ضمن مشروع كوني في نظرة استشرافية للمستقبل أيسر وأقل تكلفة من السباق نحو حيازة أسلحة الدمار الشامل والسعي إلى امتلاك بؤر النفط وموارد الثروة في العالم ما دام المصير واحدا، ونطاق التحدي للبشرية يزداد يوما بعد يوم في ظل نمو متسارع للبشر وتناقص مطرد للموارد الطبيعية مع ما يواجهنا من مشاكل بيئية جديّة...وربما عوامل أخرى خارجية على نحو ما تصوره سينما المستقبل من دمار سيدرك وجه الكرة الأرضية.

- **الهوامش :**

[1] د/ مصطفى طه : حوار الحضارات، الحضارة الإسلامية نموذجا، مجلة آفاق الثقافة والتراث : السنة 10 – العدد 37– أفريل 2002م، ص 15.

[2] أنور عبد الملك : من أجل استراتيجية حضارية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة (مصر) ط1/2007، ص 223.

[3] رضوان جودت زيادة : صدى الحداثة : المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، بيروت (لبنان)، ط1/2003، ص 132.

[4] د. محمد عبد القادر حاتم :العولمة مالها... وما عليها، القاهرة 2005م. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 484.

[5]جودت سعيد وعبد الرحمان علواني : الإسلام والغرب والديمقراطية : دار الفكر المعاصر، بيروت (لبنان) – دار الفكر، دمشق (سوريا) ط1/1996، ص 17.

[6] الدكتور محمد بن بريكة : حوار متلفز، قناة DWالألمانية، يوم 2008/12/24.

[7] مجلة الإحياء : عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الثالث : الإسلام والمسلمين في القرن 15 : الواقع والآفاق / العدد 08/ ماي2004، ص 407.

[8] GRANDGUILLAUME Gilbert :Reconnaitre L'autre en soi, une condition du dialogue ; Conditions pour une dialogue fécond entre les cultures & les Civilisations ,Tome 3;Actes du colloque international ,22/23 & 24 mouharram1424H-24/25&26mars 2003 ,2ème édition , Publication du Haut conseil Islamique , Alger , p105.

[9] Dr. Bouamrane Cheikh : Islam & Religion du Livre,Conflet ou dialogue ; Les études Islamiques: Revue académique semestrielle éditée par le Haut conseil Islamique , Alger. p 43.

10 د/ عبد العالي دبلة، د/ بلقاسم سلاطنية : الإسلام والغرب من حوار الثقافات إلى صدام الحضارات، مجلة الإحياء : عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الثامن : الإسلام وقضايا العصر، تصدر عن كلية العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية (باتنة)، العدد (6)، أكتوبر2002، ص 155.

[1]1 رضوان جودت زيادة : صدى الحداثة، ص 127.

12 محمد خاتمي: حوار الحضارات. ترجمة: سرمد الطائي. دار الفكر المعاصر (بيروت). دار الفكر (دمشق). ط1 / 2002، ص 61.

[13] اللجنة العالمية للبيئة والتنمية : مستقبلنا المشرك. ترجمة: محمد كامل عارف. مراجعة: د / علي حسين حجاج. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. 1989، ص 51.

***